الفصل الأول

الإسلام والمسيحية

جلست السيدة حنة ، وعلى وجهها سمات الاهتمام والحزن . ونظراتها معلقة بطائر يحنو على فرخه ويطعمه . وأخذ خيالها يسرح ، يسرح عبر هذه السنين التى تقضت من عمرها الذى لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون ويمرحون ، ويملئون البيت حباً ، وضجيجاً حبيباً ، ومودة وفرحة .

إنها حياة جدباء ، تلك التى لم تملأ جنباتها البهجة بالأولاد . على هذا النسق كان يدور خيالها وعيناها ممتدتان إلى الطائر يطعم فرخه فى حنان ومداعبة .

استمر خيالها يسير مع هواها ، واستمر شعورها بالرغبة فى الولد يقوى ويتركز ، وإذا بها فجأة تسيل دموعها ، وتتجه إلى الله ضارعة فى حرارة داعية فى شوق ولهفة ، أن يهب لها ولداً ، وقالت :

«اللهم لك علىّ إن رزقتنى ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس» .

يقول ابن إسحاق :

«كان السبب فى نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت» .

واستجاب الله دعاءها ، فلما شعرت بالحمل ، اتجهت إلى الله فى شكر وفى عرفان ، تؤكد من جديد نذرها ، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله :

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ : رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ ما فى بَطْنِى محرراً ، فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) .

وعمران الذى ذكرته الآية الكريمة ، ليس بعمران أبى موسى ، وبين موسى وعيسى بون شاسع من الزمن .

وأما قولها فى الآية الكريمة : «محرراً» فمعناه «معتقاً» ، وهى تقصد بذلك أنه معتق من أن يكون عبداً للدنيا ليعبدك وحدك .

يقول الزجاج :

كان على أولادهم فرضاً أن يطيعوهم فى نذرهم ، فكان الرجل ينذر فى ولده أن يكون خادماً فى متعبدهم [1] .

لقد سعدت السيدة حنة بهذا الحمل فهى تفكر فى هذا الجنين فى سعادة ، إنها تفكر فى صورته وتفكر فى تنشئته . وتفكر فى تربيته وثقافته كما تفكر فى بسماته ، وفى مداعباته ، وما كان خيالها يسرح مطلقاً فى جو هذا الجنين على أنه أنثى ، وإنما كان يسرح باستمرار — فى جوه — على أنه ذكر ، ها هو ذا قد أصبح شاباً ذكياً ، فتياً يأخذ مكانته بين فقهاء المعبد وسدنته ، بين المسيّرين لدفة الأمور الدينية والموجهين لها ، ثم ها هو ذا حبر من كبار الأحبار له الكلمة المسموعة . . . و . . و . .

وجاء أوان الوضع ، وفوجئت السيدة حنة ، مفاجأة لم تكن متوقعة . لقد كان المولود أنثى .

ارتبكت السيدة حنة لحظة من الزمن ، وفكرت فى نذرها ، وفكرت فى المقادير. وفى سرعة اتجهت إلى الله تعالى ، وكأنها تعتذر أو تستغفر قائلة :

---

(١) يقول القاضى أبو يعلى : والنذر فى مثل ما نذرت ، صحيح فى شريعتنا ، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته ، وأن يعلمه القرآن ، والفقه وعلوم الدين : صح النذر .

(رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُها أُنثَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنثَى ، وَإِنِّى سَمَّيْتُها مَرْيَمَ ، وَإِنِّى أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ)[1] .

أما مريم هذه التى يحرص المفسرون على بيان أنها ليست مريم أخت موسى ، فإن الله سبحانه أضفى عليها عنايته وشملها برعايته ، ويعبر سبحانه عن ذلك فيقول :

(فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً)[2] .

أما من ناحية كفالتها فقد تولّى ذلك زكريا ، وكان لذلك قصة .

قال السدى :

انطلقت بها أمها فى خرقها ، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم ، فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ :

« أنا أحقكم بها ، عندى أختها ، فأبوا ، وخرجوا إلى نهر الأردن ، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها فجرت الأقلام ، وثبت قلم زكريا ، فكفلها .

قال ابن عباس :

كانوا سبعة وعشرين رجلاً ، فقالوا : نطرح أقلامنا ، فمن صعد قلمه مغالباً للجرية فهو أحق بها ، فصعد قلم زكريا ، فعلى هذا القول كانت غلبة زكريا بمصاعدة قلمه .

وعلى قول السدى : بوقوفه فى جريان الماء .

وقال مقاتل :

---

(١) آل عمران آية : ٣٦ .

(٢) آل عمران آية : ٣٧ .

كان يغلق عليها الباب ، ومعه المفتاح ، لا يأمن عليه أحداً ، وكانت إذا حاضت ، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى ، فإذا طهرت ردها إلى بيت المقدس .

والأكثرون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة .

وأخذت الطفلة تشب وتترعرع فى كفالة زكريا .

فلما بلغت السن التى تستطيع فيها الخدمة ، أخذت بتوجيه زكريا عليه السلام ، تعمل فى المعبد توفية لنذر أمها ، وتتعبد فيه ، إنها عاملة عابدة .

واتخذت مريم عليها السلام محرابا ، قال الأصمعى : والمحراب ها هنا : الغرفة . والمحراب فى اللغة : الموقع العالى الشريف كما يقول الزجاج :

اتخذت مريم عليها السلام محراباً تعتكف فيه متعبدة متهجدة .

وكان زكريا عليه السلام ، يدخل عليها من آن لآخر محرابها ، رعاية لها وعناية بها وتفقداً لأحوالها فكان – على دهشة منه – يجد عندها رزقاً : ويعبر القرآن عن ذلك فيقول :

(كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا المِحْرابَ وجد عندها رزقاً .

قال : يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا ؟

قالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ)[1] .

---

(١) يقول صاحب محاسن التأويل : « فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد ، عند حبيب بن عدى الأنصارى رضى الله عنه – استشهد بمكة – قطف عنب . كما فى البخارى وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة .

= ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعراني في (اليواقيت) عن العارف بالله أبي الحسن الشاذلي قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام ، كان يتعرف إليها في بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلاً ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه ، فقيل لها : (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) .

أما عن قصة خبيب وقطف العنب فقد رواها الإمام البخاري في حديث صحيح جليل ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عيناً ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ، جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريباً من مائتي رجل كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً ، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية ، أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم ، إن في هؤلاء لأسوة يريد القتلى فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم ، فأبى فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد موقعة بدر ، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ابن عبد مناف ، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيراً فأخبرني عبيد الله بن عياض ، أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته . فأخذ ابناً لي وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي . فقال : تخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك ، والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول إنه لرزق من الله ، رزقه خبيباً فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب : ذروني أركع ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها . اللهم أحصهم عدداً :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وتزكت مريم عليها السلام بالعبادة ، وصفت نفسها ، ورق شعورها ، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة .

ورؤية الملائكة ومخاطبتهم أمر أقره القرآن الكريم ، إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم)[1] .

ولقد كان رسول الله ﷺ ، يرى الملائكة ، ويتحدث معهم ، ولا يراهم من يجواره .

والإمام الغزالي – عن تجربة – يقول :

« إن السالكين في ابتداء الطريق حينما تصفو نفوسهم وتتزكى يرون الملائكة »[2] .

تزكت مريم ، وبدأت ترى الملائكة ، وبدأت الملائكة تتحدث إليها ،

= فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو الذي سن الركعتين لكل امرئ مسلم . قتل صبراً ، فاستجاب الله لعاصم ابن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر ، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطع من لحمه شيئاً » فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري جـ ٦ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(١) فصلت : ٣٠ – ٣٢ .

(٢) انظر طبعتنا للمنقذ من الضلال .

وتسدى إليها النصيحة وتوجهها إلى طريق الحق وطريق الطاعة ، يقول سبحانه :

(وإذ قالت الملائكة يا مريم : إن الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين) [1] .

قال ابن عباس والحسن وابن جريج :

اصطفاها على عالمى زمانها . قال ابن الأنبارى :

وهذا قول الأكثرين :

وبعد أن أثنت عليها الملائكة هـذا الثناء الجميل ، قالت : (يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) [2] .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه وحبيبه وصفيه ومصطفاه : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وماكنت لديهم إذ يختصمون) [3] .

وتعود الملائكة إلى مريم تتحدث إليها ، ولم تكن فى هذه المرة موجهة أو آمرة ، وإنما تزف إليها بشرى مذهلة :

(يا مريم ، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم) [4] .

يقول صاحب زاد المسير :

---

(١) آل عمران آية : ٤٢ .

(٢) آل عمران آية : ٤٣ .

(٣) آل عمران آية : ٤٤ .

(٤) آل عمران من آية : ٤٥ .

وفى المراد بالكلمة ها هنا ثلاثة أقوال ، أحدها :

أنه قول الله له : «كن» فكان ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثانى : أنها بشارة الملائكة مريم بعيسى ، حكاه أبو سليمان .

والثالث : أن الكلمة اسم لعيسى ، وسمى كلمة ، لأنه كان عن الكلمة .

وقال القاضى أبو يعلى :

لأنه يهتدى به ، كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى .

ثم تحدثت الملائكة إلى مريم عن صفة هذا الذى بشرتها به فقالت عنه :

(وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين)[1] .

فوجئت مريم بذلك فقالت فى تعجب واستفهام :

(رب أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟) .

وكانت إجابة جبريل عليه السلام لها حاسمة ، واضحة :

(قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

واستمرت الملائكة فى ذكر بركات الله عليه فقالت :

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم

(١) آل عمران من الآية : ٤٥ ، ٤٦ .

مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم . فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم)[1] .

وإذا تأملنا قليلاً فى النص الإلهى وجدنا أن عيسى عليه السلام يقول :

إنه يفعل ما يفعل بإذن الله . ومعنى ذلك أنه ليس له من نفسه القدرة على الخلق ، أو الإبراء ، وإنما ذلك كله «بإذن الله» .

ويقول :

إنه رسول إلى بنى إسرائيل .

وإنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

ويختتم بقوله :

(إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) .

ونعود إلى مريم عليها السلام من جديد .

لقد كنا مع مريم ، وعيسى ، عليهما السلام ، من خلال سورة آل عمران ، والآن نصاحبهما من خلال سورة مريم التى ذكرت بعض تفاصيل لم تكن فيما مضى .

يقول الله سبحانه وتعالى :

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنتَ تقياً . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب

(١) آل عمران الآيات : ٤٨ - ٥١ .

لك غلاماً زكياً . قالت : أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال : كذلك قال ربكِ هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً . فحملته فانتبذت به مكاناً قصيًّا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نَسياً منسيًّا . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا ، فكلى ، واشربى ، وقرى عيناً ، فإما ترين من البشر أحداً ، فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا ، فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريًّا . يا أخت هارون ماكان أبوك امرأ سَوْء وماكانت أمك بغيًّا فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيًّا . قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيًّا . وجعلنى مباركاً أين ماكنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا . وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام علىّ يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا . ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون . ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم)[1]

أرأيت إلى هذا التكريم الذى أحاط الإسلام به مريم عليها السلام ، وعيسى عليه السلام ؟

إنهما فى التكريم السامى الذى أنزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين .

وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه ، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة ، ويتهمونها بالزنى ، إذا بالقرآن ، وبالجو الإسلامى كله ، قديمه

(١) سورة مريم الآيات : ١٦ – ٣٦ .

وحديثه ، يعتبرها قديسة صديقة .

وبينما ينكر اليهود على عيسى ، عليه السلام ، نبوته ، ويرمونه بالكذب ، إذا بالإسلام يعترف بنبوته ، وبأنه عبد الله ورسوله ، وبأنه مبارك ، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة .

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان ، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده ، وعللوا المسيح والمسيحية بأنهما من اختراع القديس بولس ، وأن المسيح ليس إلا أسطورة لم يقع لها وجود إلا فى خيال القديس بولس ، إذ بالإسلام يوجب على أتباعه ، وجوباً حتمياً ، الإيمان بعيسى عليه السلام ، نبياً ، ورسولاً ، ومباركاً ، ووجيهاً فى الدنيا والآخرة .

عيسى ؟

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين : نبى ، معصوم ، مبرأ من المعصية ، وأمه صديقة ، اصطفاها الله وطهرها ، واصطفاها على نساء بنى إسرائيل .

من هذا الأساس ننطلق ونسير فى هذا الكتاب ، نسير بحسب واقع بالفعل : أى أننا نصور واقعاً لا نخترعه ، ونكتب عن حقائق لم نبتدعها ، ونخط صفحات ناشئة عما حدث بالفعل ، والله نرجو أن يهدى لها ، وأن يهدى بها ، وأن يفتح لها قلوباً ، ويرشد بها عقولاً ، ويجعلها فى ميزان حسناتنا ، إنه سميع قريب مجيب .